لا تجالس معهم !!

عجب الجريرى لهـذا الرجل الزاهد ، الذى يلازم جامع بغداد ، لا يكاد يفارقه لحظة واحدة ، وكأنما بينه وبين المسجد نسب لا تنفصم راه ، وصلة وثيقة دونها كل الصلات ، لأنها صلة القرب الخالص ، والصفاء غامر ، والإقبال على الله القادر ، فى خير البقاع ، وأطهر الأمكنة .. فى المسجد بيث تتنزل الرحمات ، ويتصل العبد بربه ، فيناجيه ، ويتجه إليه بقلبه نجاها يظهر كوامن عبوديته ، وخفى خضوعه لخالقه ، ومستور عجزه ومبلغ حتياجه لقدرة بارئ السموات والأرض . . فى المسجد حيث تجتمع لأجساد ، وتتلاصق الأبدان ، وتتطامن الرقاب ، وتسجد الجباه على لأرض . . على مواطئ الأقدام ، إقراراً بالضعف والذلة ، لله وحده ون سواه . . !!

وأخذ الجريرى يطيل النظر إلى هذا الزاهد المتصوف ، الذى تبدو ليه علائم الفقر والاحتياج ، والمسكنة والمسغبة ، وهل أدل على هذا من لك الثوب الخلق ، الذى لايفارق بدنه بحال من الأحوال ؟! إنه يرتديه ، أيام الربيع الوادع ، حيث النسمات الرخية العليلة ، تشرح الصدر ، وتملأ نلب بهجة وسروراً ، والفؤاد مرحاً وحبوراً .. ويرتديه فى الخريف حين أزم الجو ويعبس ، ويضيق الصدر ، ويعتريه الهم والكرب .. ويرتديه

فى الكون كله ، إلا من نسمة تهب بين الحين والحين ، فينشرح لها الصدر أو شربة باردة على الظمأ ، فتبتل بها العروق .. ويرتديه فى الشتاء ، حيث يفتك زمهريره بالأبدان ، ويرهق الجسوم أدواء وأمراضا ، فلا يكاد ينجو من شره جسم ، أو يبقى بمعزل من ضره بدن .. ! !

سبحانك اللهم ! أودعت جسوم المترفين القادرين ، أنواعا من الأمراض لاحصر لها ، وألوانا من الأدواء لاعلم لأحد بها ، حتى كان لهم فى الصيف ثياب ، وفى الشتاء ثياب يتيهون بها على الفقراء والمعوزين عجبا وزهوّا ، ويُدلّون بها على المساكين والمحتاجين بطراً وأشراً ، ولا يجدون فيها دوافع شكر المنعم عليها ، بل عميت منهم القلوب ، وطمست البصائر ، فاندفعوا مع الغرور الآثم ، والحمق الكاذب ، يختالون كالطاووس ، ويزهون كالهدهد .. !!

سبحانك اللهم ! حفظت جسوم الفقراء والمساكين من قواصف الريح وفاتك البرد ، وقاسى الزمهرير ، وكأنما لتضرب للناس أروع العظات ، تبقى خالدة على مدى الأيام ، ليعلم من لم يكن يعلم ، أَنَّ مَا يُصِيبُكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَأَنَّ مَا يُخْطِئُكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ ، وأن ما فى الدنيا لايمنع عنك شيئا يريد الله أن ينالك .. !!

وهزّ الجريرى رأسه عجبا ودهشة ، واعتزم أن يدرك سر هذا الرجل صاحب الثوب الواحد ، والذى يعيش به ، لايرجو غيره ، ولا يطمع فى سواه

وسئل الرجل الزاهد ، صاحب الثوب الواحد : لم لا يرتدى غير هذا الثوب ، الذى لا يفارقه صيفاً ولا شتاء ؟

فروى قصته ، وفى عينيه حزم وصرامة ، وعلى وجهه نور ! قال : كنت مولعاً بالثياب ، أتخير أغلاها وأجملها ، وأنتقى أنسبها للفصل الذى أكون فيه ، فللشتاء ثياب مختلفة ، كلها تهدف إلى غرض واحد ، وهو الوقاية من البرد ، وإن اختلفت أنواعها وألوانها ، وللصيف ثياب رقيقة هفهافة ، حتى تملكنى هذا الحب ، وسيطر علىّ ، وخشيت حينا أن يصرفنى عن عبادة الله ، وأن يبعدنى عن الحضرة القدسية ، ولكنى لم أجد مدعاة لهذا القلق ، فأنا أعرف أن الإسلام جميل فى كل نواحيه ، يحب الجمال فى كل شيء ، وأن ما أولعت بحبه لا حرج فيه ولا إثم ، وإنما هو حلال أحله الله ، ورضى عنه ، وأباحه لعباده ، ما دام لا يورثهم الكبر والخيلة ، ولا يفسد نفوسهم وضمائرهم ، ويغير قلوبهم ، فتصبح كدرة ، كلها السخيمة والرياء الكاذب ، والخداع المقيت .. !!

أعلم هذا حق العلم ، وأعلم كذلك أن الشيطان ينتهز هذه الفرص ، فيدخل إلى قلب ابن آدم ، يعيث فيه فساداً وإرهاقا ، ويفسد النيات ، ويقضى على دوافع الخير فى الإنسان ، ويعود بها إلى الشر الماحق ، والضلال المبين ، فلا يجد المطيع له ، والمندفع معه خيرا يوم القيامة ، بل يصبح من الخاسرين الآثمين .. !!

التى تلفت النظر ، وتسترعى الانتباه ، فظللت على هذه الحال مدة طويلة كنت أشعر خلالها بلذة ومتعة ، فأنا من الذين لا يهمهم أن يتمتعوا بالطعام اللذيذ ، بقدر ما يملك عواطفهم ، ويأسر قلوبهم الملبس الجميل ، والثوب النظيف ، حتى يكاد يرقص له بدنى فرحا وسرورا ، ويهتز له قلبى مرحا وحبوراً ، وخشيت عاقبة هـذا الحب ، فهو فى نظرى حب للدنيا مهما اختلف فيه القائلون ، ووصفه الواصفون ، ومهما كان مباحاً لا إثم فيه ، لأنه مظهر من مظاهرها ، وباب من أبوابها ، ولهذا تمنيت أن ينزع الله من قلبى حب هذه الثياب . .

وآويت إلى فراشى ذات ليلة ، وأنا على حال عجيبة من الكرب والضيق الشديد ، والتفكير الملحّ ، والألم العميق ، ولست أدرى سببا لهذا كله، ولا داعى للإغراق فيه ، ومن عادتى أن أدع الأمور لله ، يصرفها كما يهوى ، ويحكم فيها بما يريد .

وسبحت روحى فى عوالم رحيبة ، وانطلقت من أسارها ، فرأيت فيما يرى النائم كأنى دخلت الجنة التى وعد الله المتقين ، فكدت أطير من الفرح والمرح ، وأحسست بالسعادة الغامرة تتملكنى وتسيطر على ، وتأخذ علىّ كل طريق ، وكيف لا ، وهذه هى أحب نهاية ينتظرها المسلم ، ويرغب فيها المؤمن ؟! فهى موطن النعيم الأبدى والسعادة الأخروية ، ويكفى أن الله سبحانه وتعالى جعلها موطن كرامته ، ومحل رضوانه ، يتكرم فيها على عباده بالرؤية ، ويتجلى عليهم فتكون هذه اللحظات الكريمة أسعد ما رأوا

وزاد سروري ومرحي ، حينما طوّفت هنا وهناك ، فأبصرت جماعة من إخواننا الفقراء الذين يسعد بهم القلب ، وتطمئن لهم النفس ، وتطرب بهم الروح ، لما في القرب منهم من السعادة ، والإقبال على الله سبحانه وتعالى ، فهم جنوده في الأرض ، يرفعون راية الحق ، ويعلون كلمة الله ، ولا يرضون به بديلا . هم نور الدنيا ، وخير ما فيها من كائن ، قاوموا النفس والشيطان فخلصت لهم أرواحهم طاهرة ، ونفوسهم ذكية ، وقلوبهم نقية ، لم يعبث بها شيطان أثيم ! !

كانت هذه الجماعة تلتفّ حول مائدة جميلة ، عليها من أطاييب الطعام كل ما تشتهيه النفس ، ويلتذ به اللسان ، ويتمناه الإنسان ، فلم أتراخ أو أبطئ ، بل سرعان ما أقدمت عليهم ، وأنا أكاد أطير من الفرح والسرور ، وخيل إليّ في هذا الوقت أن هذه مائدة قدسية ، فيها من الأسرار العظيمة ، والبركات الوفيرة ، ما تهفو له قلوب المؤمنين . .

وما كدت أجلس معهم ، حتى فوجئت بما لم يكن في الحسبان ، وما وقعت من جرائه في دهشة وعجب وحيرة ، وفغرت فمي عجبا وألمًا ، ولكني لم أقل شيئا . وماذا أقول ، وقد أقبل إليّ جماعة من الملائكة في سرعة خاطفة ، وأخذوا بيدي في قوة ، وأقاموني .. ! ؟

يا لله ! لماذا أطرد وأبعد عن هؤلاء الأصدقاء والإخوان ؟ إنهم

كلما التقينا ، فى أى مكان ، فلماذا يحال بيننا على هذه الصورة الحازمة ، التى لاتقبل نقاشا ولا توانيا ؟ !

* * *

لقد احتقرت نفسى حينذاك ، ورجعت بذاكرتى إلى سالف الأيام ، أقلب الطرف هنا وهناك ، فإذا بكل أعمالى كما عهدتها ، إخلاصا لله ، ومجاهدة للنفس ، و بعداً عن النفاق والرياء ، والكذب والخداع ، فلماذا أبعد عن هؤلاء الأصدقاء الصالحين ، على هذه الصورة الحازمة ، بلا رحمة ولا إشفاق ؟

ترى هل خالط عملى رياء أو نفاق ، فأودى به ذلك ، من حيث لاعلم لى به ، ولا دخل لى فيه ؟ إذا كان هذا فلا تبعة علىّ ، ولامسئولية ، فلست أطالب بما لايدخل فى الطاقة ، وليس فى وسعى امتلاك زمام الأمر فيه ، فكيف إذن أبعد عن هؤلاء ، وأطرد على هـذه الصورة القوية الحازمة ، التى تصدع لها بدنى ، وتهدم جسمى ؟ !

وألهمنى الله سبحانه وتعالى ، أن أقول لهذه الجماعة من الملائكة فى ضراعة و إخلاص :

— إن هؤلاء أصحابى .. إنهم من الفقراء الذين أدركوا قيمة الحياة ، وأقبلوا على الله مخلصين له العبادة أيما إخلاص . .

الملائكة سيرحمون ضعفى ، وسيتركوننى أسعد مع أصحابى بالأكل من هذه المائدة ، وبخاصة وأن أيديهم لم تمتد إليها ، إلى الآن . . ولكنى كنت واهماً فى هذا الرأى . . إنه خيال كاذب ، ووهم خاطئ ، فهم مأمورون دون ريب ، وليس لهم مناص من اتباع الأمر ، وتنفيذ الخطة المرسومة ، التى أمرهم بها رب العزة ، ولهذا قالوا لى :

— هؤلاء أصحاب ثوب واحد . . وأنت لك قميصان . .

وذهلت حينما استمعت إلى هذا الكلام ، وعدت بذاكرتى إلى أيامى فى الدنيا ، وإلى عشقى للملابس ، وحبى الشديد للثياب ، ورغبتى الملحة فى التلذذ بهذا الضرب من ضروب المباح . . ! !

إذا كان للعامة من الناس أن يتمتعوا كما يشاءون بأنواع المباح ، يأخذون منها بكل ضرب ، فلا يليق بالفقراء الذين وضعوا نصب أعينهم الزهد فى الدنيا ، والرغبة عن لذائذها ، وانصراف عن كل ما يشغل القلب بغير الله . . لايليق بهؤلاء أن ينهلوا من المباح ، بما يشعرهم باللذة البدنية ، والمتعة الجسمية ، لأن هذا ليس فى حسبانهم ، ولا يصح بحال من الأحوال أن يكون من أهدافهم ، ولهذا علمت أن البلاء دخل إلىّ من ناحية هذا المباح وصدق حَدْسى ، إذ طالما خشيت أن تكون رغبتى فى كثرة الثياب سببا فى حرمانى من رضاء الله ، وبابا من أبواب الشر والسوء .. !!

وما كدت أفيق من ذهولى ودهشتى ، حتى سمعت جماعة الملائكة

— لا تجلس معهم .. !!

لا تجلس معهم ؟ ! يالله ! أهكذا أحرم من خيرة الأصدقاء ؟ وأطرد من خير المجالس ؟ وأبعد عن صفوة رجال الله ؟ !

* * *

وحمدت الله سبحانه وتعالى ، حينما انتبهت من نومى ، وعلمت أن ما حدث لم يكن حقيقة ، بل كان حلماً عابرا ، ورؤيا .

ولكنى مع هذا نذرت ألا ألبس إلا ثوباً واحداً ، إلى أن ألقى الله تعالى .. صيفاً وشتاء ، فليس بى حاجة بعد هذا الحلم إلى كثير الثياب ، وعديد الملابس ..

وصمت الزاهد ، وقد بدت عليه علائم التفكير ، وأدرك الجريرى السر الذى طالما اشتاق لمعرفته ، وارتفعت فى عينه منزلة هذا الزاهد الفقير ، وتمنى أن يسير سيرته ، وينهج نهجه .. ! !

بحمد الله تعالى وحسن توفيقه تم طبع
كتاب [صور دينية] مصححا بمعرفة لجنة
من العلماء برياسة : الشيخ أحمد سعد على .

القاهرة فى { ١٧ محرم سنة ١٣٦٨ هـ
١٨ نوفمبر سنة ١٩٤٨ م

ملاحظ المطبعة — مدير المطبعة
محمد أمين عمران — رستم مصطفى الحلبي